ذكر ماجريات[1] أدبيات متعلقة بذكر الروضة

وقال الصاحب فخر الدين بن مكانس: كان على شاطئ النيل سرحة كأنها قبة زمرد، أو فسطاط زبرجد، فاقترحت جماعة الأصحاب[2]، وبنو الآداب، أن ينظموا[3] صورة الحال، بشرط الارتجال، على أسلوب الأرجانى[4] فى وصف الشمعة:

نمت بأسرار ليل كاد يخفيها وأطلقت قلبها للناس من فيها

والمناوى فى فضل[5] الوادى:

وقانا نفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم

وحمدة بنت تقى الأندلسية فى وصفه:

أباح الدمع أسرارى بواد له فى الحسن آثار بوادى

فقلت: لا تركض خيول الارتجال فى هذا المجال، ولا تستبق بداية الأذهان فى هذا الميدان، ولأن تسمحوا فى الانتظار بليلة، ربما ينجح فى اختياركم الحيلة، فأذعن كلانا إلى ما شاء صاحبه من الاقتراح، فقلت: عند تنفس الصباح:

---

(١) كذا وردت هذه اللفظة بالنسخ الخطية.

(٢) فى الأصل: للأصحاب.

(٣) فى الأصل: ينظم.

(٤) فى جـ: الأرج.

(٥) فى الأصل: فصل.

يا سرحة الشاطئ [1] المنساب كوثره ... على اليواقيت فى أشباه حصباء

حلت عليك عزاليها 1 السحاب إذا ... نوء الثريا استهلت ذات أنواء

وإن تبسم فيك النوء من جدل ... سقاك من كل غيم كل بكاء

رحماك بالوارف المعهود منك فكم ... لنا بظلك من أهوى وأهواء

وكم نزلنا مقيلا منك يا [2] حمى ... الهجير 2 حيث لا مرأى بجرباء [3]

نظل فى فيئك الفضفاض فى ظلل ... من الغمام يقينا كل ضراء

يا طيبة [4] بدواء القيظ عالمة ... أنت الشفاء لذى الرمضا من الداء

لا صوح 3 الدهر منك الزهر وانبجست ... عليك كل هتون الورق سوداء

عصابة القوم أموا أرض [5] زاهرة ... تعزى لأكرم أخوال وآباء

خمائل الزهر منشاها ومرضعها [6] ... ضرع النميرين 4 من نيل وأنواء

فاستمهدت دوحها المخضل وافترشت ... نجم الربا ورقت عرشا على الماء

قريرة العين بالأنواء باردة الـ ... ـقلب الذى لم تنله غير سراء

---

(١) فى ب، جـ: الوادى.

(٦)فى الأصل: وموضعها.

---

1 عزاليها: جمع عزلاء، وهى مصب الماء من القربة ونحوها.

2 الهجير: شدة الحر فى منتصف النهار.

3 صوح: يقال صوح النبت ونحوه: يبس حتى تشقق وتناثر.

4 النميرين: مثنى نمير، وهو الماء الطيب الناجع فى الرى.

(٣)فى ب، جـ: ما.

(٣) فى الأصل: بجرماء. والجرباء: الأرض المقحوطة لاشيء فيها.

(٤) فى ب، جـ: طبة.

(٥) فى ب، جـ: روض.

obeikandl.com

مقيل ندمان بل مغنى حمائم بل كناس آرام بل (أقباء 1 ماء) [1]

لها مطارف 2 ظل سجسج 3 فمصيـ ـفها يعادل [2] فيه طيب مشتاء

قديمة العهد هزتها الصبا فغدت وهى العجوز تهادى 4 هدى مرهاء 5

لا يدرك الطرف أقصاها على كلل حتى تعود له لحظات حولاء

وصوب بلبلها الراقى ذرى [3] غصن فى حلة من دمشق 6 الريش [4] دكناء

كقرع ناقوس ديرى على شرف مسبح فى سواد الليل دعاء

حلية حين أحنيت [5] الضلوع على نار بشجوى بها لا حب لمياء

تهكمت بى فلم تحن [6] أضالعها على الهواء وأحنتها [7]على ماء

بديعة الحسن قد حاز [8] الجناس لها من المعانى بأفنان وأفناء

وقام عنها لسان الزهر ينشدنا للهو كم أرج مابين أرجاء

---

(١) فى الأصل: أفناء درماء. وفى ب: أقباء درماء.
(٢) ليست فى الأصل، جـ.
(٣) فى ب، جـ: ذى.
(٤) فى ب، جـ: الريح.
(٥) فى الأصل: أخيت. وفى ب: أجتبت.
(٦) فى الأصل: تحسن. وفى ب: تجنى.
(٧) فى الأصل: وأخفقها. وفى ب: وأختها.
(٨) فى ب، جـ: فاز.

---

1 أقباء: جمع قبو، وهو بناء تحت الأرض تنخفض حرارته فى الصيف.
2 مطارف: جمع مطرف، وهو رداء أو ثوب من خز.
3 سجسج: أى: لا حر ولا برد.
4 تهادى: أى تتهادى بمعنى تتمايل فى مشيتها.
5 مرهاء: المرهاء من النعاج: الشديدة البياض.
6 دمشق: زينة.

obeikandl.com

وقال:

كم [١] صفق الموج [٢] من أزهارها طربا ... فنقطته ببيضاء وصفراء
وكم طربت لما أبدته من ملح ... يصبو لها كل ذى عقل [٣] وآراء
وجدت بالتبر من مالى ومن أدبى ... فصرت فى كل حال منهما الطائى
كأنها فى جنان الخلد قد كملت ... حسنا [٤] من خضراء لفاء
كأن أغصانها لون الرشاق إذا ... هصرت 1أفنانها أعطاف وطفاء 2
كأن صمغتها الحمرا بقشرتها [٥] الد ... كناء قرص على أعكان سمراء
كأنها فوق دعص الماء إذ سفحت [٦] ... هضابة سح واد رب أفياء
مالت على النهر إذ جاش الخرير به ... كأنها أذن مالت لإصغاء
كأنما النهر مرآة وقد عكفت ... عليه تدهش فى حسن ولألاء
ذو شاطئ راق غب القطر فهو على ... نهـر الأبله 3 يزى [٧] أى إزياء [٨]
كأنه عند تفريك النسيم له ... فرند سيف 4 نضته كف حلاء 5
كأنه شبك من لؤلؤ نظمت ... أو جوهر السن أو تخليل [٩] رقشاء 6

---

(١) ليست فى الأصل.
(٢) فى جـ: الزهر.
(٣) فى ب: نقل.
(٤) ورد بعد هذه اللفظة بياض فى الأصل، وقد احدث هذا النقص خللا فى الوزن.
(٥) فى الأصل: تغرتها. وفى ب: نقرتها.
(٦) فى ب، جـ: سفجت.
(٧) فى ب: بزى.
(٨) فى ب، جـ: إزراء.
(٩) فى جـ: تحليل.

---

1 هصرت: جذبت وأمالت.
2 وطفاء: هى السحابة الدائمة المطر.
3 نهر الأبله: نهر يخرج من دجلة بقرب البصرة.
4 فرند سيف: هو ما يلمح فى صفحته من أثر تموج الضوء.
5 حلاء: هو الذى يكحل العين بالحلوء، والحلوء: ما يحك بين حجرين ليكتحل به.
6 رقشاء: هى الحية التى بها نقط سواد وبياض.

كأنه حين يهدى زرقة [1] وصفا ... رقراق[2] عين بوجه الأرض شهلاء 1

إذا شدون حمامات الأراك على ... أغصانها فرأينا [3] رقص هيفاء

من كل ورقاء فى الأفنان صادحة ... بين الحدائق فى فيحاء زهراء

ورق تغنت بجنات رقين على ... عيدانها (فما له في) [4] مغنى وغناء

باكرتها فى سراة 2 من أصاحبنا ... لا ينطوون على حقد وشحناء

تداعبوا [5] بمعانى شعرهم فأدوا ... ود الأحبة فى ألفاظ أعداء

من كل شيخ مجون فى شباب فتى ... يقرى المجون بقلب غير فشاء [6]

قلت: رأيت أبياتا لبعض المتقدمين فى سرحة 3 فأحببت أوردها [7] مع هذه وهى هذه:

وسرحة بربى بخد مهدلة 4 ... أغصانها فى غدير ظل يرويها

إذا الصبا نسمت والمزن يهضبها 5 ... مشى النسيم على لين يناجيها

تقيل فى ظلها بيضاء آنسة ... تكاد تنشرها لينا وتطويها

---

(١) فى ب، جـ فراق.

(٢) فى ب: زوقه.

(٣) فى ب، جـ: فترينا.

(٤) فى الأصل: فى الرفى. ويلاحظ أن هذا الشطر من البيت غير مستقيم الوزن.

(٥) فى الأصل: قد أعبؤا. وفى ب: تدعبوا.

(٦) فى ب، جـ: نساء.

(٧) كذا وردت هذه اللفظة فى النسخ الخطية دون أن يسبقها حرف "أن" وهى لغة فاشية فى الحجاز يقولون: يريد يفعل، أى: يريد أن يفعل. وهى كثيرة فى كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه.

---

1 شهلاء: يقال: عين شهلاء، إذا اختلط سوادها بزرقة.

2 سراة: سراة كل شيء: وسطه ومعظمه.

3 سرحة: هى الشجرة العظيمة الطويلة.

4 مهدلة: متدلية.

5 يهضبها: يبلها بلا شديدا.

obeikandl.com

سود ذوائبها بيض ترائبها حمر محاسرها [1] صفر تراقيها

ورأيت فى تذكرة العلاء الكندى بخطه [2] قال: كتب الأديب سراج الدين عمر الوراق إلى مهذب الدين بن البرهان مع طبق عنب من داره بالروضة:

دع هجرا والتمر فى ضربك الـ أمثال للقاطن والراحل
فأعجب الأشياء إهداؤنا من عنب الكرم إلى الفاضل

فأجابه:

أخجلت أرباب الندى كلهم من قائل منهم ومن فاعل
فلا عدمناك فتى محسنا تحسن فى العاجل والآجل

وكتب إليه أيضا فى المعنى:

أهديت لى عنبا سر الفؤاد به (كأن آنيته إذ زانها) [3] الفدم 1
وغير بدع إذا أهديت لى عنبا فإن دارك فيها الكرم والكرم

قال الإمام أبو حيان النحوى: صنع لنا القاضى علاء الدين ابن بنت الأعز طعاما بمنزله بالروضة، فحضرته وكان معنا القاضى فخر الدين بن صدر الدين المارابى[4]، فرأينا ونحن بالمنزل ننظر إلى البحر شابا يسبح فى الماء، ثم خرج فالتطخ بتراب من البر، فقال علاء الدين: لينظم كل منا فى هذا المعنى شيئا، فقعد كل منا بمعزل، ولم يطلع على ما نظمه رفيقه، حتى تكمل ما نظمناه، وأخذ كل واحد ما

(١) فى ب، جـ: محاسدها. والمحاسر: جمع محسر، وهو ما تكشف عنه المرأة من مفاتنها.
(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.
(٣) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: كأنه ابنة إذ زادها.
(٤) فى ب، جـ: المازانى.

1 الفدم: بسكون الدال الشيء المصبوغ بحمرة مشبعة.

نظمه الآخر فكان ما نظمه (علاء الدين) [1]:

ومترب لولا التراب بجسمه ... لم تبصر الأبصار منه منظرا [2]
فكأنه بدر عليه سحابة ... والترب ليل من سناه أقمرا

ونظم فخر الدين:

ومترب تربت يدا [3] من حازه ... كقضيب ترب ضمخوه بعنبر
فكأن طرته 1 وضوء جبينه ... ليل أظل[4] على صباح أنور[5]

ونظم أبو حيان:

ومترب قد ظن أن جماله ... سيصونه عنا بترب أعفر
فغدا يضمخه فزاد ملاحة [6] ... إذ قد حوى ليلا بصبح أنور
فكأنما [7] الجسم الصقيل بتربه ... كافورة لطخت بمسك أذفر 2

وقال الأديب جمال الدين بن نباتة شاعر عصره يتشوق إلى الروضة والنيل، ويمدح [8] السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون رحمهم الله تعالى:

---

(١) ليست فى الأصل.
(٢) فى الأصل: مبصرا.
(٣) فى جـ: يداه
(٤) فى ب، جـ: أظلم.
(٥) فى الأصل: النور.
(٦) فى الأصل: قلاحة. وما أثبتناه يتفق مع المعنى.
(٧) فى جـ: فكان.
(٨) فى الأصل: يمدح.

---

1 طرته: طرفه وحرفه.
2 بمسك أذفر: هو الجيد من المسك.

بدت فى رداء الشعر باسمة الثغر فعوذتها بالشمس والليل والفجر
ولو شئت قسمت الذوائب مقسما بطيب ليال من ذوائبها عشر
وقبلتها مصرية حلوة اللمى 1 أكرر فى تقبيلها [1] السكر المصرى
ويعذرنى[2] من ليس يدرى صبابتى فأصرفه من حيث أدرى ولا يدرى
ومن عجب الأشياء حلو ممنع وأصبر عنه وهو حلو مع الصبر
وكم لائم فى حب ليلى إذا [3] اعرضت وعنف [4] حتى[5] جانس الفخر بالفخر
وشيب رأسى خدها ومعنف وهذا رماد الشيب من ذلك الجمر
فيا قلب خنساء القوى وأدمعى على مثلك العينان تجرى على صخر
أرى الشمس منها فى العشاء منيرة ومن صدها عنى أرى النجم فى الظهر
يذكرنى عهد الوفا ما نسيته ولكن تقضى الحال منه من[6] المر
أما وقد ضاء [7] المشيب بمفرقى فبالشيب لا بالطوع صرنا إلى الهجر
وفارقت خد الغانيات وجفنها فجرحا على جرح وكسرا على كسر
وإنى لمشتاق إلى ظل روضة على النيل أروى العيش فيها عن النضر
لئن حثنى باب البريد إلى مصر لقد حثنى باب الزيادة فى النذر [8]

---

(١) فى ب: قبيلها.
(٢) كذا وردت هذه اللفظة فى النسخ الخطية، وهى فى ديوان ابن نباتة: ويعزلنى. أى: يلومنى. وهى أوفق بالسياق.
(٣) جاء مكان هذه اللفظة فى ب، جـ: خنساء.
(٤) فى الأصل: وعنسق.
(٥) هذه اللفظة ليست فى الأصول الخطية وأثبتناها من ديوان ابن نباتة، ص ١٩٥.
(٦) فى ب، جـ: فى.
(٧) فى الأصل: ضاق.
(٨) فى الأصل، ب: البدر.

---

1 اللمى: سمرة فى الشفة تستحسن.

إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى ... فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر

ويصبح حلو الطعم [1] للمحل قاتل ... حلاوته سكب (وجنديه يجرى) [2]

ويجرى بإسعاد العباد فحبذا ... بسعدك يا سلطانها ساعيا يجرى

لسلطان مصر الناصر بن محمد ... على كل مصر طاعة البر والبحر

تجمعت الأمصار فى مصر طاعة ... وهل تجمع الأمصار إلى على مصر

سلام على إسكندر الوقت إن يفح ... شذا الذكر عنه فالسلام على الخضر

سلام ثغور الخلق تنفس فى الورى[3] ... بأفواهها حتما على أنفس الزخر [4]

على باب سلطان العباد كأنها ... لنظم ثناياها عقود من الدر

مليك روت أخباره سير التقى ... عن الملك المصرى عن الحسن البصرى

له منزلا حسن وتحت مقامه ... بهذا وذا فى القلب حب وفى الصدر

أماله[5] ملك لا فلان ولا فل ... ونحو علا لا نحو زيد ولا عمرو

فملك بلا جور وحكم بلا هوى ... وأزربلا وزر وعز بلا كبر

قضا عمر فى حلم عثمان جامعا ... لبأس على فى سماح أبى بكر

مضى الشفع من مرأى أبيه وجده ... وجاء فلا زالت له دولة الوتر

إلى ناصر من ناصر وكذا على ... مواجده [6] المنصور مسترسل النصر

أجل بيوت الملك بيت قلاوون ... وأنت أجل البيت يا وارث الدهر

فملكك حق واضح الصبح [7] أشرقت ... سعادته كالظهر يا واحد العصر

---

(٧) فى الأصل: الشمس. وما أثبتناه أوفق بسياق البيت.

(٢) فى الأصل: العر. وفى ب: المعرى.

(٢) فى الأصل: وجندته تجرى.

(٣) فى ب، جـ: الثرى.

(٤) فى الأصل: الزجر.

(٥) فى ب، جـ: أنا.

(٦) كذا بالنسخ الخطية. وفى ديوان ابن نباته: مدى جده. الديوان، ص ١٩٦.

مراد البرايا أن تدوم وإن ثووا ... وميراثك الباقى إلى ذلك الحشر
بصوتك أركان الشريعة شيدت ... وصينت ثغور كلها باسم الثغر
وخاض بها قوم تعدوا فقوبلوا ... بها كل إنسان لديه من الخسر
لك الله إما كسب حظ من الثنا ... تحوز وإما كسب حظ من الأجر
ليهنك [١] ما أحببته [٢] من حبيبه [٣] ... بإبطال ما تجنى الجنايات من وزر
ليهنك [٤] ما عمرته من معالم ... سيثنى على عما رهن أبو ذر
ويمدحكم حسانها اليوم أوغدا ... بدار البقا بعد الطويل من العمر
فأيامك الأعياد عائدة لمن ... رجاك ومن عاداك بالفطر والنحر
وكفك للمداح أيام [٥] عشرها ... وليلة من يسعى بها [٦] ليلة القدر
ودولتك الزهراء للجود والسطا ... فبالفلك السعدى والفلك البشرى
ونصر على الأعدا يبادر رعيه ... فيسبق مجرى الخيل بالعسكر المجرى
ويعرض عن كيد العدا لاحتقارهم ... بلا قاصد ماش ولا حائم صقر
فأعداك هذا مس فى النوم رأسه ... وآخر قبل السيف مات من الذعر
وكم لك فى دانى الديار ونازح ... غيوث عطاها يخلط السهل بالوعر
يضن [٧] بأحمال من التبر [٨] معشر ... إذا اتصلت أحمال جودك من تبر
مليك التقى والعلم والبأس والندى ... فمدح على مدح وشكر على شكر

---

(١) فى الأصل: ليهنيك.
(٢) فى ب، جـ: جيته.
(٣) فى ب: حبه. وفى جـ: جبيه.
(٤) فى الأصل: ليهنيك.
(٥) فى الأصل: أمام.
(٦) فى ب: لها.
(٧) فى الأصل: يصف.
(٨) كذا وردت هذه اللفظة فى النسخ الخطية. وهى فى ديوان ابن نباتة: التبن. وهو أوفق بالمعنى المراد.

تهن وكل الناس عاقبة روت حديث التهانى عن بشير وعن بشر
بها حملت عنك السقام بمصرها عيون المها بين الجزيرة والجسر
فليس سقيما غير جسم [1] مليحة وليس عليلا غير ناسمة تسرى
فأحسن بها للملك فى كل حالة بشائر عند السيف والعز والنصر
وأحسن بها حيث الهناء مسطر صحائفها عن كاتب السر والجهر
عوافى إلا أنها قاهرية حكت [2] حالتيها فى المسرة والقهر
فعافية الأجساد عند ذوى الهدى وعافية الأطلال عند ذوى الكسر
هنيئا لسلطان البرية سيرة مزهرة الأوراق بالأنجم الزهر
تبيع[3] ولكن بالكلام نفائسا من المال يلقاها غدا [4] جمة الوفر
وتبتاع لكن بالنفيس غواليا من الحمد إلا أنه عاطر النشر
وأحييت للآداب علما ومعلما بنعماء تقرى بالفوائد (أو تقرى) [5]
وجود دنانير سبقن[6] بمعجز ترينا بدور التم فى أول الشهر
سبقن _وإن لم يشتك_ الفقر بالغنى وقابلن _ إن لم نشتك_ الكسر بالجبر
كذلك أذهان الملوك بقية [7] ترى فيه مرآة الأمان فيستقرى
تأملت ما تعطى الملوك من النهى فعوذت فردا بالثلاث من الحجر
أحقا أرانى فى مرامى عنانه [8] نباتا يحيى واكف المزن بالزهر

---

(١) فى ب، جـ: جفن.
(٢) فى ب، جـ: حكمت.
(٣) فى جـ: تباع.
(٤) فى ب، جـ: ذو.
(٥) فى ب، جـ: وتترى.
(٦) كأنها فى الأصل: مبين. وفى ب: يبين. وفى ديوان ابن نباته: سبقن.
(٧) فى الأصل: بغنه. وفى ديوان ابن نباتة: نفية.
(٨) فى ب: عناية.

وأنشد أمداحا [1] تقول لمن أتت ... مدحتك بالشعرى وغيرك بالشعر
وأفعل أفراسى كأحمر عسجد ... وقد كنت مشاء على قدمى تسرى
وقد كنت فى قبر الخمول وها أنا ... ملى بما قد قاله صاحب القبر
أزف (من الأمداح) [2] كل مليحة ... وإن جازت السبعين ناهدة بكر
وما كان من نثر ونظم صنعته ... لغيرك إلا مثل تجربة الفكر
فما برحت خدام وصفك مثلا ... تراك فتردى مسند الحمد والذكر
مرجيك عن نجح ويمناك عن عطا ... ورأيك عن سعد وملكك عن نصر

وقال ابن أبى حجلة فيما كتب به على دفاتر قاعة صلاح الدين الزفتاوى بمصر مقابل الروضة:

بنيت على السماحة والرباح ... وحزت الحسن من كل النواحى
وفقت الدور فى مصر لأنى ... حويت من التقى أهل الصلاح
يزيل البحر حولى كل هم ... كأن الماء ممزوج براح
ويبدى الريح لى منه دروعا ... ويصقلها فتلمع كالصفاح
إذا افترجوا على الشراب منه ... سقيتهم من الماء القراح 1
كأن حبابه البادى عليه ... عقود الدرفى جيد الرداح 2
أقابل روضة فيها زهور ... تضوع كطيب أثواب الملاح
وسقفي [3] كالرياض به دهان ... تبسم فيه عن ثغر الأقاح 3

(١)فى الأصل: مداحا.
(٢)فى ب، جـ: بالأمداح.
(٣)فى الأصل: وسفى.

1 القراح: النقى الخالص
2 الرداح: يقال: امرأة رداح، أى: ضخمة الردف سمينة الأوراك.
3 الأقاح: هو فى الأصل نبت زهره أصفر أو أبيض. ويكثر تشبيه الأسنان بالأبيض منه.

وأرضى من رخام من رآه يصرح فيه بالحسن الصراح
وطالع سلمى أبدا سعيد يزيد به سرورى وانشراحى
وطالع باذهنجى1 كل حين أريد القلب منه بالرياح
إذا هب الطياب [1] به عشاء يطيب من العشاء إلى الصباح
وإن لام العذول على هواه فبعض القول يذهب فى الرياح

وقال يمدح صلاح الدين المذكور:

تزايد مثل البحر من قربكم أنسى وبت من المقياس فى بسطة النفس
فكيف أخاف الآن نقص مسرة بمصر وهذا النيل قد زاد فى العرس
وأقبلت الأيام بالنيل [2] والرخا وزال [3] الذى تشكو الأراضى من اليبس
وجاء صلاح الدين والنيل مقبل[4] وحاسده المغبون فى الطرد والعكس
إليك صلاح الدين قافيتي[5] التى أتت [6] بثغر السن تبسم فى الطرس
ولو لم أبت فى مصر نحوك مقلعا قلعت من الدنيا وأبنائها [7] ضرسى

وقال أيضا يصف بيتا على البحر:

وبها شبابيك ترى بعيونها ما لاح من مصر إلى أسوان
ومناظر تصغى إلى مر الصبا فكأنها الآذان فى الحيطان

(١) فى جـ: الطيبات.
(٢) فى ب، جـ: باللين.
(٣) فى ب: وجاء. وفى جـ: وزاد
(٤) فى ب: مقبلا.
(٥) فى جـ: فاقتى.
(٦) فى الأصل، ب: أتيت.
(٧) فى ب: وأبياتها.

1 باذهنجى: الباذهنج: مسقط الهواء.

وعيون شاذ روانها لماجرت أمست تقول تعال صب عان
طفح السرور على حتى إنه من عظم ما قد سرنى أبكانى
أهوى خرير الماء فيه كلما خر النسيم به على الأذقان
يجلو النسيم الهم فيه مجاليا [1] أو ما سمعت بصيقل الأذهان
ألف الصبا فيه الطياب فتارة يتفرقان به ويجتمعان
إن صفقت أمواج بحرته فكم غنت حمائمه على العيدان
وكأنما الشختور فيه عقرب ينساب فوق الماء كالثعبان
وكأنما رجل[2] الحمام إذا مشى فى مرجه [3] طبعت من المرجان
فمتى مررت بمرج ناديه ضحى مرج الندى بحرين يلتقيان
لو لم أبت والبان حول بنائه وأبان فيه فضيلة للبان
كم لاح [4] فيء الظل فوق الورد مث ـل الدرفى صحن من العقيان
والزهر فى النارنج حين يلوح مث ـل الدر كالأقراط فى الآذان
فجمعت بين البحر والإيوان وال بستان والغزلان والميدان
فتهن بالمجموع دام لك الهنا فجميع ما تهواه فى بستان

وقال أيضا فى قلعة:

قلاع قلعت الهم عنى بذكرها وإن طولت شوقى إليها قصورها
لئن كان جوف الليل فى مصر روضة ففى كل قصر روضة وغديرها

---

(١) فى ب: دائما. وفى جـ: محايلا.
(٢) فى الأصل: زجل. والرجل: الطائفة.
(٣) فى ب: موجه.
(٤) فى الأصل: فاح.

وقال أيضا فى بيت بدرالدين الخروبى قبالة المقياس:

تأمل فما مثلى على البحر بارز ... فكم طاب عندى للطياب هبوب
عيون شبابيكى (لحاظ لعاشق) [1] ... على كل عين للهواء رقيب

وقال ابن نباتة:

تقلدت من نعماك فى حال غربتى ... قلائد شتى من نوال ومن شعر
وأسكنتنى (بيتا على البحر) [2] أرتجى ... مكافاته فى ألف بيت على بحر

وقال آخر:

إذا كنت فى مصر ولم تك ساكنا ... على نيلها العالى فما أنت فى مصر

وقال ابن أبى حجلة يمدح الخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبا الفتح أبابكر ويذكر النيل وذلك فى سنة اثنتين وستين وسبعمائة:

إذا بت فى در المدامع خاليا [3] ... علمت غرامى بالعقيق وحاليا
حكى خفقان البرق قلبى كأنما ... ببرق الحمى من لوعة الحب ما بيا
إذا لمعت نار البروق على الغضا ... أذابت عليه قلعة من فؤاديا
وإن لاح لى من أيمن الجزع بارق ... سللت على العذال [4] سيفا يمانيا
خليلى كفا عن ملامى فى الهوى ... فما لكما فى اللوم خير ومماليا
ألم تعلما أن العذول على الهوى ... يزيد المعنى فى الغرام تماديا
وليل كيوم البحر طولاوظلمة ... إذا ما دجى خفت الرقيب المداجيا

---

(١)فى ب، جـ: كألحاظ عاشق.
(٢)فى جـ: على البحر بيتا.
(٣)فى جـ: حاليا.
(٤)فى الأصل: الغزال.

إذا طار من جنح الظلام غرابه ... رأيت به من أشهب الصبح بازيا[1]

سريت به والبرق يستل سيفه ... ويضرب من هام الجبال العواليا [2]

كأن دموعى أنجم فيه قد سرت ... وخلت بياضا خلفها ومآقيا

سقى بقعة فيها العقيق سحائبا ... إذا أقلعت ألقت دموعى المراسيا

منازل لو مرت يمين جنازتى ... لقال الصدا يا صاحبى قفا بيا

على أننى لو رمت فيها صبابة ... أعيدت بها روحى إلى كما هيا

بها تربة العباس تبسم [3] نورها ... ويجلو من الظلماء مالان داجيا

سقاه بها الرضوان ربى فطالما ... غدا بكؤوس المزن للأرض ساقيا

خليفته فينا سرى مثل سيره ... فروى بسحب الجود من كان صاديا

ألم يبد فينا مع طلاقة وجهه ... مكارم عباسية وأياديا

أتى مصر والنيل العظيم بفيضه ... يعم أقاصى أرضها والأدانيا

إذا ما بدا والماء فيها مكدر ... رأينا به عيش البرية صافيا

يشنف سمع الأرض بالقرط دائما ... ويترك جيد الروض بالزهر حاليا

يذكرنى رشف الثغور أقاحها ... ولم أك ناسيها [4] ولا متناسيا

فكم روضة نمامها عرف طيبه ... إذا ما أمنا عذله (بات واشيا) [5]

بفم [6] على خد الشقيق إذا غدا ... بروضته الفيحاء بالحال خاليا [7]

---

(١) فى ب، جـ: باريا.

(٢) فى ب، جـ: الأعاليا.

(٣) تكررت لفظة (العباس) مكان هذه اللفظة فى جـ.

(٤) فى جـ: ناسيا.

(٥) جاء مكان ما بين القوسين فى جـ: واليا.

(٦) فى ب، جـ: نعم.

(٧) فى جـ: حاليا.

فللنيل فى أرض الكروم[1] تكرم يروى بها أشجارها والدواليا [2]
كأن ندى كف الخليفة لم يزل يدير على الظمآن منها سواقيا
فكم حركت عودا له الورق فى الضحى كما حركت أيدى القيان الملاهيا
أغانى [3] التهانى فيه إن عاز مطربا بأصواتها تملى عليه الأغانيا
إذا ضعفت يوما عن النظم همتى وجدت القوى فى مدحه والقوافيا
لقد سار فينا سيرة عمرية أبو بكر الحاوى العلا والمعاليا

وقال ابن أبى حجلة أيضا وقد ركب مع الجمال بن نباتة فى شختور إلى الجيزة:

وفى لك الدهر يا شيخ القريض بما يهوى بمصر بإنجاز[4] وإنجاح
وجزت للجيزة الفيحاء مصطبحا والكوب ما بين ملاء وملاح

وقال أيضا وقد ركب بعض أصحابه فى البحر فلما عاد وجد داره احترقت:

ركبت [5] البحر يا مخدوم يوما لتشرح صدر كل أخ شقيق
وأوحشت المنازل منك حتى شكت فى قلبها نار الحريق

قال الصلاح الصفدى فى تذكرته ومن خطه نقلت: قال ناصر الدين حسن بن النقيب: كنا عند [6] سراج الدين الوراق بالروضة وجمال الدين أبو الحسين الجزار حاضر، ومعه شاب اسمه نجم راح إلى مصر، فقعد عندنا وطلب الرواح لحاجة عنت [7] له فقلت:

---

(١) فى جـ: الكرام.
(٢) جاء مكان هذه اللفظة فى ب: والزهر خاليا. وفى جـ: والزهر جاليا.
(٣) فى الأصل، جـ: بما فى.
(٤) فى جـ: بإيجاز.
(٥) فى الأصل: رأيت.
(٦) فى جـ: مع.
(٧) فى ب: عقت. وفى جـ: عفت.

يا جمال الـدين ما أذ كى وما أيقظ فهمك
فلكم سددت بالفكـ ـرة فى الأغراض سهمك
فأبن لى لائح[1] الخلـ اق[2] ما عمرت سهمك
ما الذى عدى بك اليو م لمصر وأهمك
والذى يخطر لى أنـ ـك قد أبصرت نجمك
بالذى[3] نشر أعلا مك فى الفضل وعلمك
فأزل وهمى أزال الله عن قلبك وهمك
لا تدعنى أيها الجز ار من يأكل لحمك
والذى يظهر لى أنـ ـك قد أوترت سهمك
وقبيح بك أن تجـ ـعل مدحى لك ذمك

فأجاب ونحن جلوس بديها:

سيدى حاربت عبدا لم يزل يطلب سلمك
أنا والله ونجمى[4] نشتهى نأمن رجمك
ليت شعرى يا قوى الصـ لب هل سميتنى اسمك
والذى وفر[5] من لذ ة هذا الباب قسمك
لست فى النظم ولا النثـ ـر ولا فى الباه خصمك
فاعتذر واستغفر اللـ ـه فقد (فارقت اسمك)[6]

---

(١) فى الأصل: لامجا. وفى ب: لا ملجا مجا.
(٢) فى ب: الحلاق.
(٣) فى جـ: بالله الذى.
(٤) فى جـ: وغيرى.
(٥) فى ب، جـ: مر.
(٦) فى ب: قارفت إثمك

ونظم سراج الدين الوراق 1 أيضا:

حمدنا الأمير ابن النقيب لأنه أعادك بعد اليوم يقظان مفكرا

هراق بذكر النجم نومك عامدا كذا من يراعى النجم لا يطعم الكرى

وقال الصفدى: وكتب أبو الحسين الجزار إلى ناصر الدين بن النقيب:

قد هربنا من انزعاج الهواء وفرغنا لروضة ولماء

ولورد مثل الخدود وزهر حملا عنك [1] عاطرا من ثناء

ولدينا إن شئت عود بخور ضمنا غيمه وعود غناء

وندامى إن كنت فيهم فحق الأر ض أن تزدرى بشهب السماء

فتفضل وكن جوابا كما لبى نداك العفاة قبل النداء

فأجاب:

خلنى من مدامة وغناء ونديم وروضة غناء

ليس فى الجمع [2] حظ ولكن أنت حظى ومنيتى واقتضائى

أنا لولاك ما تخطيت يوما بعد وخط المشيب 2 للندماء

لك يا صاحب الشذور من الأشـ ـعار صحت صناعة الكيمياء

ويمينا بنور ألفاظك الغر ومن دونها نجوم السماء

وبأبياتك الأواهل [3] بالمعـ ـنى الصحيحات قسمة فى البناء [4]

ما تأخرت عنك إلا لعذر سوف يبديه العبد عن اللقاء

---

(١) فى جـ: منك.
(٢) فى ب، جـ: الجميع.
(٣) فى جـ: بالأواهل.
(٤) فى ب: البقاء.

---

1 هو أبو حفص سراج الدين عمر بن محمد بن حسن الوراق، شاعر مصر فى عصره، كان كاتبا لواليها الأمير يوسف بن سبا سلا، له ديوان شعر كبير، توفى سنة ٦٩٥هـ.

2 وخط المشيب: سرعته ونشوه.

obeikandi.com

*** ذكر موسم النيروز:**

قال ابن رضوان: لما كان النيل هو السبب الأعظم[1] فى عمارة أرض مصر رأى قدماء المصريين وخاصة الذين كانواعلى عهد قلديانوس أن يجعلوا أول السنة فى أول الخريف عند استكمال النيل، والنيروز هو أول السنة القبطية، وهوأول يوم من توت.

قال المقريزى: «وكان من مواسم لهو المصريين قديما وحديثا إلى أن أبطله برقوق، وكان من عاداتهم فيه إيقاد النار والتراش بالماء، وكان الخليفة يجلس له فى قصر اللؤلؤة على الخليج، وكان الأفضل يجلس فى دار الملك التى بقرب المعزية على ساحل النيل، وأراد الخليفة الآمر فى سنة ست عشرة وخمسمائة أن يحضر إليها فى النيروز فى المراكب على ما كان عليه الأفضل، فأعاد عليه المأمون أنه لا يمكن، فإن الأفضل لا يجرى مجراه مجرى الخليفة».

ومعنى النيروز فى اللسان السريانى: العيد. وسئل ابن عباس عن النيروز لم اتخذوه عيدا؟ فقال: إنه أول السنة المستأنفة، فكانوا يستحبون أن يتقدموا فيه على عهد ملوكهم بالظرف والهدايا فاتخذته الأعاجم سنة.

وفى (تاريخ ابن عساكر 1) من حديث ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى** ﴾ 2 قال: وافق ذلك يوم النيروز.

وقال حمزة بن على الأصبهانى فى كتاب (أعياد الفرس): أول من اتخذ النيروز جمشيد، ويقال فيه جمشاد ملك الفرس الأول، ومعنى النيروز: اليوم الجديد.

وقال ابن وصيف شاه: أول من عمل النيروز بمصر: منارس بن منقاوس أحد ملوك القبط فى الدهر القديم، فكانوا يقيمون سبعة أيام يأكلون ويشربون.

---

(١)ليست فى جـ.

---

1 تاريخ دمشق (٦١/ ٦٥).

2 سورة طه، الآية ٥٩.

وقيل: إن سليمان عليه السلام أول من وضعه فى اليوم الذى رجع إليه فيه خاتمه، وقيل: هو اليوم الذى شفى فيه أيوب عليه السلام.

وقيل: إنه اليوم الذى أحيى فيه السبط من بنى إسرائيل، وهم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم. فرفع أمرهم إلى ملك فارس فقال: تبركوا بهذا اليوم، وليصب بعضكم على بعض الماء. (وكان ذلك اليوم يوم النيروز فصارت سنة إلى اليوم) [1]

وقيل: إنه اليوم الذى رمى فيه إبراهيم عليه السلام فى النار.

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه 1 بسنده من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان اليوم الذى رد الله إلى سليمان بن داود عليه السلام خاتمه يوم النيروز فجاء الشياطين بالتحف، وكان تحفة الخطاطيف أن جاءت بالماء فى مناقيرها فرشته بين يدى سليمان عليه السلام فأخذ الناس رش الماء من ذلك اليوم.

وأخرج ابن عساكر 2: من طريق إسحق بن بشر، أخبرنى مقاتل بن سليمان نحوه وزاد قال: سمى ذلك اليوم نيروز، وذلك أنه وافق ذلك اليوم الذى يسمونه النيروز، فكانت الملوك تتيمن بذلك اليوم واتخذوه عيدا، وكانوا يرشون الماء فى ذلك اليوم، ويهدون كفعل الخطاطيف ويتيمنون [2] بذلك.

وأخرج ابن اسحق من طريق إسحاق بن بشر، حدثنى سفيان الثورى، قال: بلغنى أن سليمان بن داود يوم[3] رد الله عليه ملكه، أمر الريح أن تحمله فحملته فانتهى إلى مفرق الطريق فاستقبله خطاف، فقال: أيها الملك إن لى عشا فيه بيضات

---

(١)ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٢)فى ب: ويستمعون. وفى جـ: ويقيمون.
(٣)هذه اللفظة ليست بالأصل.

---

1 تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٦١).
2 المرجع السابق (٢٢/ ٢٦٢).

قد حضنتهن وأنا أرجو إفراخى أيامى هذه فاعدل رحمك الله، فإنك إن مررت (بعش حطمته) [1]، فشفعه وترك ذلك الطريق. فانطلق الخطاف إلى البحر حين نزل سليمان فحمل ماء فى منقاره فنضح بين يديه، فسأله أصحابه عن ذلك، فقال: إنه سألنى أن أعدل عن الطريق الذى فيه عشه، فهو يحمل الماء من البحر بمنقاره ينضحه بين يدى شكرا لى 1.

قال إسحاق: وحدثنى شيخ من خزاعة يقال له عبد الرحمن بن آدم، حدثنى سعيد بن أبى عروبة بهذا الحديث، وزاد فيه: بأنه أتاه برجل جرادة فوضعه بين يدى سليمان، فقال له سليمان ما هذا. فقال: هدية لك. فقال سليمان: لقد شكر هذا، ومن لا يشكر المخلوق لا يشكر الخالق 2.

وكان فى الدولة الفاطمية للنيروز رسوم لأهل الدولة من الكسوة والذهب والورق والبطيخ والرمان والبسر وأقفاص التمر القوصى وأقفاص السفرجل والهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن والبقر وخبز الرقاق لأربابها[2]، كل بحسبه.

وكان مبلغ النقد فى ذلك اليوم من الذهب أربعة آلاف دينار، ومن الورق خمسة عشر ألف درهم، وأما الكسوة فعدة كثيرة من الشقق [3] المذهبة والحرير، فأما الذهب والورق والكسوة فتختص بأهل القصور وأهل دار الوزارة والشيوخ والحواشى والخدام ورؤساء العشاريات، وليس لأحد من الأمراء فيها نصيب، وأما أصناف المأكول فيشمل الجميع [4] من ذكر فى العين والكسوة وسائر الأمراء والأعيان ممن له تعلق فى الدولة.

---

(١)فى ب، جـ: بالعش حطمته بيضاتى. وفى تاريخ ابن عساكر (٢٢/ ٢٦١): بالعش حطمت بيضاتى.
(٢)فى الأصل: لاريها.
(٣)فى الأصل: الشقنى. والشقق: جمع شقة، وهى ما شق مستطيلا من الثوب.
(٤)ليست فى ب، جـ.

---

1 أخرج هذا الأثر ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٦١).
2 أخرج هذ الأثر ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٦٢).

واستمر موسم النيروز بعد الدولة الفاطمية أيضا إلى سنة بضع وثمانين وسبعمائة فمنعه برقوق، وهو إذ ذاك مدبر الدولة قبل أن يتسلطن من لعب النيروز، وتهدد من لعبه بالعقوبة، فكف الناس عنه وبطل إلى الآن. وكانت أسواق القاهرة فى أيام عمله تعطل من البيع والشراء، ويقل فيه سعى الناس فى الطرقات ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب والفسق والفجور ما يخرج عن الحد.

قال المقريزى: وكان قل ما انقضى يوم نيروز إلا وقتل فيه قتيل أو أكثر، فلله الحمد على إبطاله وما أحسن قول بعضهم:

كيف ابتهاجك بالنيروز يا سكنى ... وكل ما فيه يحكينى وأحكيه
فتارة كلهيب النار فى كبدى ... وتارة كتوالى دمعتى فيه

وقال آخر:

نورز الناس ونورز ... ت ولكن بدموعى
وذكت[1] نارهم والنا ... ر ما بين ضلوعى

وقال آخر:

ولما أتى النيروز يا غاية المنى ... وأنت على الإعراض والهجر والصد
بعثت بنار الشوق ليلا إلى الحشا ... فنورزت صبحا بالدموع على الخد

ودار الملك التى كان يحضر إليها الأفضل ابن أمير الجيوش يوم النيروز أنشأها الأفضل فى سنة إحدى وخمسمائة بجوار المدرسة المعزية بمصر، وفيها يقول الأسعد ابن المهذب بن مماتى:

حللت بدار الملك والنيل آخذ ... بأطرافها و الموج يوسعها ضربا
فخيلته قد غار لما وطئتها ... فأضحى يحرك [2] عند ذاك لها حربا

---

(١)فى الأصل: وذكرت. وما أثبتناه أوفق بالسياق.
(٢)مكان هذه اللفظة بياض بالأصل، جـ.

وكانت من أعظم المناظر، فلما قتل الأفضل صارت من أعظم متنزهات الخلفاء، وما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة فجعلها الملك الكامل دار متجر، ثم عملت فى أيام الظاهر بيبرس دار وكالة.

وقال الصلاح الصفدى فى كتابه (فض الختام عن التورية والاستخدام): اعلم أن المتأخرين قد سلكوا فى التضمين طريقا أبدعوا سلوكها ووضعوا الدر فى سلوكها، وهو أن المتكلم منهم يأتى إلى البيت المشهور أو المثل السائر فيضمنه نظمه أو نثره بلفظه، ويعطى له توطئة تقلب معناه الأول إلى المعنى الثانى الذى أراده، فيكتسى التضمين بذلك رونقا، ويستزيد بذلك طلاوة، وهو نوع يزيد سلامة ذوق وصحة فكر، كما كتب أبو الحسين الجزار فى يوم نيروز:

كتبت بها فى يوم لهو وهامتى ... تمارس من أهواله ما تمارس
وعندى رجال للمجون ترحلت ... عمائمهم عن هامهم والطيالس
فللراح ما ذرت عليه حبوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس
مساحب 1من جر الرفاق على القنا ... وأضغاث أقطاع حمى ويابس

فانظر كيف نقل لفظة الراح من اسم الخمر فى الأصل من قول أبى نواس[1] إلى جمع راحة، واهتدم من البيت الآخر ما اهتدم فى الموضعين ليوافقه فيما اتفق قصده مما يجرى بين الناس فى النيروز. وقال الشريف جعفر العلوى المصرى المعروف بابن الماشطة فى يوم اتفق فيه العيد والنيروز:

أتى العيد والنوروز مجتمعا معا [2] ... وشملى (بمن أحببت) [3] غير جامع
فعيدت فى ثوب جديد من الضنا ... ونورزت مع صحبى بماء المدامع

(١)فى الأصل: فراس.
(٢)فى الأصل: بهم أحببته.

1 مساحب: جمع مسحب، وهو مكان السحب.
(٣)ليست فى جـ.

ومن إنشاء ضياء الدين بن الأثير من رسالته فى التهنئة بنيروز أو مهرجان، قال:

الهنا يحصل بنوروز السنة ومهرجانها، وليس ذلك إلا للاعتدال بحلول الشمس فى برج حملها وبرج ميزانها، وبين هذين الفصلين مناسبة فى محاسن الآثار، فهذا من حظ الأفواه وهذا من حظ الأبصار، غير أنهما تفاخرا فى الفضائل، وأطلق كل منهما لسانه فى بيان الشواهد وإقامة الدلائل فقال الربيع:

أنا المبشر بنطق الأطيار[1]، واكتساء الأشجار، واستغناء الناس عن ثقل الديار، والاصطلاء بالنار، وشمس تحل فى برج شرفها الذى هو لها خير الأبراج، وقد جعلت سراجا للسماء وبه يزيد إضاءة ذلك السراج، ومن زمنى أبان الورد الذى هو أحسن الأزمان، وريحانه أطيب الريحان، وإذا ضاهاه غيره قيل والنجم والشجر يسجدان، ولولا فضلى ما مثلنى[2] الله بالمنثور[3]، وأخرج فى المنابت من الظلمات إلى النور، وجعلها سطورا فى قرطاس الأرض ولا يحسن القرطاس إلا بالسطور.

وأما الخريف فإنه قال:

أنا الذى أتى بذهاب السموم، وأيام الغيوم، واعتصار نبات (الكروم وتكاثر ألوان المشروب والمطعوم، وفى يترقرق صفاء الأنهار، وتشبه القوابل بالأسحار)[4]، وأيامى هى الذهبيات وتلك تشبه كريمة البحار، وقد سمانى قوم بربيع الناس، ورأوا لباسى لا يخلق سريعا كما يسرع إلى غيرى إخلاق اللباس، ومن ثمراتى ما لا تزال أمهاته حوامل، وأوراقه نواضر غير ذوابل، وقد شبه بالمصابيح وشبهت أوراقه بالسلاسل.

ولاشك أن هذه الأوصاف (من كلا الفصلين صادقة، وهى بشقاق الدعوى

---

(١)فى الأصل: الأشجار.

(٢)فى ب، جـ: فضلنى.

(٣)فى الأصل: بالمنشور. وفى ب: بالنشور. والمنثور: زهر ذو رائحة ذكية.

(٤)ما بين القوسين ليس فى الأصل.

بينهما فارقة، ولو استفتيت فى تفضيل أحدهما)[1] لما ملت فى كفة الميزان، ولقلت إنهما فى المماثلة كفرسى رهان.

*** ذكر الموسم الذى كان بالروضة قديما ليلة الغطاس:**

قال المسعودى فى مروج الذهب: لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها، وهى ليلة إحدى عشرة من طوبة، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر، والإخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة الراكبة على النيل، والنيل مطيف بها، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أخرج أهل مصر من المشاعل والشمع. وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئون الألوف من الناس من المسلمين والنصارى فى الزواريق، ومنهم فى الدور، ومنهم على الشطوط، كل بما يمكنه من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والقصف، وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة 1من الدواء.

وقال (المسبحى فى تاريخه)[2]: فى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة كان غطاس النصارى، فضربت الخيام والمضارب فى عدة مواضع على شاطئ النيل وأوقدت المشاعل والشموع.

وقال: فى سنة خمس عشرة وأربعمائة فى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة كان غطاس النصارى. فنزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جده العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ومعه الحرم، ونودى أن لا يختلط المسلمون مع النصارى

---

(١)ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٢)ما بين القوسين ليس فى الأصل.

---

1 نشرة: هى رقية يعالج بها المريض ونحوه.

عند نزولهم إلى البحر فى النيل، وضرب بدر الدولة الخادم الأسود متولى الشرطتين خيمة عند الجسر وجلس فيها، وأمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل فى الليل فكان به وقيد 1 كثير، وحضر الرهبان فقسسوا هناك طويلا إلى أن غطسوا.

وقال ابن[1] المأمون: كان من رسوم الدولة أنه يفرق على سائر الدولة ليلة الغطاس الترنج والنارنج والليمون وأطنان القصب والسمك البورى برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام.

قلت: وقد بطل هذا فى سائر المنكرات التى بطلت ولله الحمد، فجزى الله من أبطله خير الجزاء، فإن ذلك من شعار الكفر، وقد نهى عن حضور أعياد الكفر.

روى ابن يونس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «اجتنبوا عيد اليهود والنصارى فإن السخط ينزل عليهم فى مجامعهم».

وعن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾2 قال: أعياد المشركين. فقيل له: أو ما هذا فى الشهادة بالزور؟ فقال: إنما آية شهادة الزور﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً﴾3.

* ذكر البرزخ الذى بين النيل والبحر:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾4.

---

(١)هذه اللفظة ليست فى ب، جـ.

---

1 وقيد: الوقيد: الوقود.

2 سورة الفرقان، الآية ٧٢.

3 سورة الإسراء، الآية ٣٤. والخبر أورد نحوه ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣٠).

4 سورة الفرقان، الآية ٥٣.

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا الحسين بن الحسين، حدثنا إبراهيم بن عبدالله الهروى، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ قال: حجازا لا يراه أحد لا يختلط العذب بالبحر.

قال: ابن جريج: ولم أجد بحرا عذبا إلا الأنهار العذاب تجوز فيه منها مثل الخيط الأبيض، فإذا رجعت لم ترجع طريقهما من البحر شيء.

قال: والنيل زعموا أنه ينصب فى البحر فلم أجد فى قول مجاهد العذب بالبحر، فلم أجد العذب إلا الأنهار. إسناده صحيح. أخرجه مختصرا ابن أبى شيبة وابن المنذر فى تفسيريهما بدون قول ابن جريج.

[وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عطية العوفى عن ابن عباس فى الآية قال: يقول حجز أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه وهو مثل قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾1] (١).

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال: جعل بينهما حاجزا من أمره، لا يسيل المالح على العذب ولا العذب على المالح.

وقال ابن المنذر فى تفسيره: حدثنا موسى بن خلف، حدثنا شريك، عن سالم، عن سعيد بن جبير قال: البرزخ ما بين العذب والمالح.

فائدة: قال الأزرقى فى تاريخ مكة: حدثنى جدى، حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى مقاتل، عن الضحاك بن مزاحم قال: بلغنى أن التضلع من ماء زمزم برأة من النفاق، وان ماءها يذهب بالصداع، وأن الاطلاع (٢) فيها يجلو البصر، وأنه سيأتى عليها زمان تكون أعذب من النيل والفرات، وأن الله تعالى يرفع

(١)ما بين المعقوفتين ليس فى جـ.
(٢)فى الأصل: الإطلاح.

1 سورة النمل، الآية ٦١.
2 المستدرك (٤٥٠٦).

المياه العذبة قبل يوم القيامة غير زمزم فتغور المياه غير زمزم، وتلقى الأرض ما فيها من ذهب وفضة.

وأخرج الحاكم فى المستدرك1 وصححه: عن عبدالله بن عمرو قال: للدجال آيات معلومات: إذا غارت العيون، ونزفت الأنهار، واصفر الريحان، وانتقلت مذحج وهمدان من العراق فنزلت قنسرين، فانتظروا الدجال غاديا أو رائحا.

*** ذكر مفاخرة بين الروضة ومصر:**

أنشأ الشريف صلاح الدين محمد بن أبى بكر الأسيوطى رحمه الله تعالى قال:

يقبل الأرض وينهى أنه ليس يخفى عن العلوم الكريمة، والألباب الكاملة السليمة، أن النفس والروح للاسترواح، أشد طلبا من راحتها بالراح، وأن المملوك قصد مصر لهذا فى بعض الأيام، وتنقل إلى الروضة متنزها من غير آثام، فملأ العين بما لهما من المحاسن، وبما خصتنا به وبذاك الماء العذب القراح[1] الذى هو غير آسن، ورأى أن كلا منهما بمعان تفردت، وبأوصاف غير ما شملها من الإطلاق دون الأخرى قيدت، فاستنطق لسان حالهما، مفصحا عن أمرهما.

فقالت مصر: بسم الله تبركا لفظا ومعنى، (أنا القديمة مبنى)[2]، والذى[3] إذا عدت أوصاف غيرى من البلدان فرادى جاءت محاسنى مثنى مثنى، لى سمعة فى الجاهلية والإسلام، وإذا حل فى حال دخل دار الأمن بسلام، وشبه بعض السلف خلق الدنيا بالطير وأنى الصدر، وحسبك هذا التشبيه رفعة فى القدر، فخرى على البلاد كفخر العلماء على العباد، وذكرى فى كل ناد بين حاضر وباد، أنا نزهة النفوس ومطلع البدور والشموس، وإذا بدا زمن الربيع فترانى كالعروس، وحبذا بساتينى المفتنة بكل عصر طائل، ونيلى الجارى كالسكر المذاب للنائل، وأحسن بقول القائل:

---

(١)ليست فى ب، جـ. والقراح هو الخالص.

(٢)ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٣)فى ب، جـ: وأنا الذى.

---

1 المستدرك (٤ / ٥٠٦).

أرض مصر فتلك أرض من كل فن بها فنون
ونيلها العذب ذاك بحر ما نظرت مثله العيون

فقالت الروضة: الحمد لله على هذه المسرة، ثم الحمد لله الذى أظهر محاسنى بشهادة الضره، وأقر كل لسان ممن رآنى بأنى لانشراح القلوب مقرة، أنا للجموع رائضة[1]، وبأنواع الفرح والخير فائضة، ولموج الحرث الذى مثل الجبال غائضة، أزهارى بطيبها تفوح، وبألوانها المعجبة تتبهرج وتلوح، (نعم أنا الجزيرة المستجدة، وناهيك بالحسن الجديد) [2]، إذا فاخر ضد ضده، أنا العروس بالتحقيق فى زمن الربيع، أنا زهرى الباسم الناسم وتلوينه البديع، أنا لساكنى من الوشاة والرقباء والأعادى لاسيما فى أيام النيل حصن منيع، ولله در القائل فلقد أجاد، وأبدع فيما أعرب وأفاد:

زر الجزيرة وقت النيل فى السحر واغنم بها لذة الآصال والبكر
فللجزيرة بالنيل المقيم بها غنى عن المطر الجانى على الجدر
يا حبذا هى والبحر المحيط [3] بها كأنها هالة دارت على القمر
وحبذا صفة المقياس بارزة كمثل ردف له بالماء مؤتزر
وحبذا الروضة الغناء كم شبه فيها تقوم لجبرى على قدرى

فقالت مصر للروضة: الآن حصحص الحق ببيانه، وظهر بعد كتمانه، أسأت بهذه المقابلة[4]، وكيف لك بالمطاولة، أنا فضلى مذكور، وصيتى غير منكور، القاطع كالسيف عند أهل العلم مشهور، ذكرت فى أربعة وعشرين موضعا من التنزيل،

(١)فى الأصل: رامقة.
(٢)جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: وأغصانى تتمايل طربا.
(٣)فى الأصل، ب: المقيم. وما أثبتناه أوفق بالمعنى.
(٤)فى ب، جـ: المقالة.

منها أربعة صريحة 1 وباقيها بتأويل2، ووردت الأخباربسندها فى بصحة الأقاويل، شهد الإجماع بفضلى، ولى الآثار الجميلة والجامع العتيق3 كعبة للمصلى، وأنا مأوى التنزيل من أبناء السبيل والعالم والصالح والمتولى، وكم للنزهة والتعبد عندى من زاوية، وكم فقير بالبحر وراوية، لطفت أبنائى فوصفوا بالرقة والصفا، وتمازجوا بحلاوتهم حب الوفا، فقيل عنهم ما ليس فيه خفا.

حبذا الفسطاط من والدة جنبت أولادها در الجفا

قدا أتى[1] النيل إليها كدرا فإذا مازج أهليها صفا

فقالت الروضة: تبرهن البرهان، وبان البيان، قال الله عز وجل: ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾4، وقال تعالى: ﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ ﴾ 5، وحسبى بهذا دليلا إذا أكثر المكثرون، وإن لم أكن تلك فى المعنى والعيان، ففيه تشبيه لى بأحسن الجنان، وهو من أقوى الدلائل على تفخيم الشان. فإذا شهد بفضلك الإجماع فأنا كذلك وأزيد عليك بالقياس، وعرفت على الحقيقة بالوفاء دونك بلا إلباس، واشتهر افتخارى بالستر يوم الزينة6 على العاصى وغيره بين

(١)هذه اللفظة ليست فى الأصل، جـ.

1 المرات الأربع التى ورد فيها ذكر مصر صراحة فى القرآن الكريم هى:
- قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ سورة يونس، الآية ٨١.
- وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ سورة يوسف، الآية ٢١.
- وقوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ سورة يوسف، الآية ٩٩.
- وقوله تعالى حكاية لقول فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ سورة الزخرف، الآية ٥١.

2 أورد السيوطى أكثر من عشرين موضعا ورد فيها ذكر مصر تأويلا فى القرآن الكريم. وانظر: حسن المحاضرة (١/ ٦-٩).

3 الجامع العتيق: جامع عمرو بن العاص

4 سورة الروم، الآية ١٥.

5 سورة الشورى، الآية ٢٢.

6 يوم الزينة: هو ما يسمى بيوم وفاء النيل. والذى يصل فيه الماء إلى ستة عشر ذراعا، بأذرع عمود المقياس بالروضة.

الناس، وإن كان لك جامع فلى الزيادة، وآثار جميلة فكم لى بالأصابع أياد أنا بها عيد وهى عادة، وطالما سعى سلطانك إلى بملابسك الفاخرة، وصالحك بسجادة [1]. وإن كان لك فخر بالزاوية والبحر فإن لى فخرين، بأنى روضة الطالبين، ومجمع البحرين، وأنت مأوى الفعلة[2]، والبيعة والسوقة، والمذمة بأهل الذمة والكنائس (وأهل الحانات)[3]، والخانات المطروقة، وأنا للكبراء والوزراء والملوك وأهل الطريقة، أتملى بلقاء البدر عند طلوعه وما تفوزين بنظرة منه إلا عند الغروب، وأين إقبال الحبيب من إعراض المحبوب، وأحظى بالشمس بكرة الندى وتصلين بها من الهجير إلى استحكام الغيوب. والعجب منك كم لك طاقة، ولا لك على هذا طاقة، وأعجب منه تقابلين طراوتى [4]، بالحراقة1، وتلك النشافات عند الزلاقة. فإن وصفت لك أيها المصر محاسن فليست إلا فى جنب أوصافى، وتأملى فما لبساتينك أغصان خلافى، وكأنما ناظرت الشام بزهراتى وفاضلتها بها، حتى كادت الجبهة تسجد لى بإذن ربها، فحبذا منازل منى نفح الشمال فيها شمول، لا بل الرياح الأربع على وجها قبول، أصبح كل غصن من رياضى يمين وهو بنعمى الظل مقلدا، والنسيم يمشى على ذلك الروض مقيدا، والماء يتجعد تجعيد المبرد فلا عجب أن يجلو عن القلب الصدا. ذات [5] بحرين تعاضدا على دفع الهموم الخافية، ومدحت بما يعاب سواى به من مخامرة النسيم الواشى ومخالطة العين الصافية، قد مرج الله تعالى فى البحرين يلتقيان، وأخرج فى أعطاف الغصون من زهراتى اللؤلؤ والمرجان.

---

(١)هذه اللفظة ليست فى ب. وفى جـ: بسجادك.

(٢)فى الأصل: الغلفة.

(٣)ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٤)فى جـ: طلاوتى.

(٥)فى الأصل: دامت.

---

1 بالحراقة: الحراقة هى المركب التى كان يستخدمها السلطان أو من ينوب عنه فى الاحتفال بتخليق المقياس وكسر سد الخليج.

ذات وجهين فيهما خيم الجسـ ـر فأضحت بها القلوب تهيم

ذا يلى مصر فهو مصر وهذا يتولى وسيم فهووسيم

فبلج البحار يسبح نون وبفج القفار يسنح ريم

قد أعادت عصر التصابى صباها وأبادت فيها (الغموم الغيوم) [1]

فقالت مصر: أنا مدينة الكسب والمعاش، وللمقيم بى إقامة حال ما عاش، ومعدن التاجر والمتاجر وذوى الرياش، أنا مستودع نفائس الأموال، وحواصل الأقوات والغلال، فساكنى يجمع بين نعيمى الدنيا والآخرة عاجلا (وفى المآل) [2]، وفى كل ربع من رباعى للأحبة مربع، ومخلص للمضطر فى بيوتى عند كل مطلع[3]، وفى كل ناحية منى للمتنزه مرتع، يكاد نهر المجرة يجرى بين يدى رباى وحماى، والمشترى أن يبتاع ببرجه أدنى درجة من سناى، فأنا على السعد ممدودة الرواق، منظومة النطاق، تعود قاعاتى بالسبع الطباق، وكم من ذى ريم، عند البساتين والبريم1، ولا تنسى العاشق والمعشوق والرصد، وبركة الحبش التى لا ينكر حسنها أحد.

بها ما تلذ العين من حسن منظر وما ترتضيه النفس من شهواتها

زمردة خضراء قد زين قرطها بلؤلؤة بيضاء من زهراتها

(١)فى الأصل: الغموم الغموم. وفى جـ: الغيوم الغموم.

(٢)ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣)ليست فى جـ.

1 البساتين: اسم قرية كانت تقع قبلى بركة الحبش، وفيها مساكن وبساتين كثيرة، وكان بها جامع تقام فيه الجمعة.

و البريم: اسم متنزه على النيل.

أنت إلى [1]الهرم قريبة [2]، وفريدة غريبة، وعدمت القوس 1 ففقد المشترى منك نصيبه، توقعين السالك فى التعدى، أوالغرق والتردى، أو الخوض مع الخائضين، فدونه مهالك قبل وصوله للمطالب مع الرائضين، وما ثم مانع، يقتضى عدم الفرق بيننا إذ لا جامع.

فقالت الروضة: إن كان بك غلال فكم بك من مغلول، وعلى تنفق الأموال وتروح الأرواح فلك الحاصل ولى المحصول، وأنا من الهرم بعيدة، وقد أقررت فى هذه المعاياة بأنى طارئة المنشأ فى الحسن جديدة، و النضارة تشهد أينا ترملت، وبالخرائب والكيمان تكونت، نواحيك للنواح، لأجساد بالقبور بغير أرواح. كم سبح سابح إلى أسرع من البرق، وقيم قطع بينى وبينك بالغرق، وكم ملك أراد الوصلة بيننا بجسر فما تجاسر، وأقدم طامعا فباء بالحسرة إذ انعكس أمره وتعاسر. وما بلغ أحد لك فى مناه، ولكن تصديت للجناية على ونسيت حماما يجنى لك منى فأنا على كل حالة مخصوصة بالجناه. إذا صفر منزل من منازلك فعندى آس وربيع، وإذا أتى جماد منك إلى عجب من حسنى البديع، مما بين سقاة جوار جلوس، وسواق جوارى تذهب البوس. وأدنى بقاعى هو المشتهى، وتناهيت فكان لى المنتهى، أمنح من قبض عليه الهم جامعا للمسرة وبسطه، ويكرمه ربيعى الزاهى إذا انطوى بأكدار الزمن فيفرش له بسطه، ونشرى2 أينما سار نفح، مثل نور الغزالة 3 حيثما لاح سنح 4. وأنا الروضة الحسنة الانبساط، وحلى أزهارى البهجة أقراط،

---

(١)هذه اللفظة ليست فى ب.

(٢)فى ب: فزينه.

---

1 القوس: اسم متنزه بقى من القلعة التى بناها الصالح نجم الدين أيوب جنوبى جزيرة الروضة، وفى الافتخار بهذا المتنزه يقول شمس الدين النواجى:

مصر قالت دمشق لا ... تفتخر قط باسمها

لو رأت قوس روضتى ... منه راحت بسهمها

2 ونشرى: النشر: الريح الطيبة.

3 الغزالة: المراد بها هنا الشمس.

4 سنح: هو من قولهم: سنح الطائر فهو سانح، إذا مر من مياسرك إلى ميامنك فولاك ميامنه. وكانت العرب تتيمن به.

والحال بى كأنه[1]، حل بدار السلام أعنى الجنة، واتخذنى ملجأ فكدت أن أكون من طوارق الأيام جنة[2]، كيف أخذت حلى[3] التعدى على بالمناظرة، وعبت ما هو لى ولك محاسن بالمغايرة، وذاك هو النعمى الذى هو لنا بمنزلة الوسن من الجنون[4]، وتقربها الأعين كما تقربها العيون. وهو النيل الذى إذا أتى راق منظره، وشاقت من أمواجه وداراته أعكانه وسرره، وسقى مدة الأرض سقى الرحيق، وفاض منه كل[5] خليج يصل الأمن وإن كان بقطع الطريق، وأصبح أنا بمقياس فى الحسن غاية، وكرسى جسرى[6] له فى كل وصف آية، لئن كنت أنت الأس وأنا الزائدة، فأنا من عندى تعرف القاعدة، وما لنا نتقاذف ونحتال للسباب بحبائل الشرك، ونأبى إلا الإقلاع عما لنا فى السعة من المعنى المشترك، وإليه عاضد هذا الشاهد:

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هى الجنة العليا لمن يتفكر
فأولادها الولدان والحور أهلها وروضتها الفردوس والنيل كوثر

فقالت مصر هيهات هيهات، وأنشدت هذه الأبيات:

مصر لها صورة ومعنى وذكرها فى الورى يسير
وكل نعت يقال عنها فى جنب أوصافها يسير

فلما أبت مصر الإنصاف، واتصفت بهذه الأوصاف، انثنت الروضة واسترجعت، وحمت حماهاوتمنعت، وطلبت النصرة بحلول ركاب حكم، يعدل بينهما إذا حكم.

---

(١)فى الأصل، ب: كان.
(٢)فى ب: حنة.
(٣)فى الأصل: على.
(٤)فى جـ: الجفون.
(٥)هذه اللفظة ليست فى الأصل.
(٦)فى ب، جـ، جرى. وكرسى الجسر: هو رأس الجسر الذى كان يصل ساحل مصر بجزيرة الروضة.